تدمر، البتراء، البحر الأحمر وطريق الحرير*

فوزي زيادين
دائرة الآثار العامة ـ الأردن

يذكر بلينيوس (Pliny) القديم في كتابه « التاريخ الطبيعي » الذي ألفه في عام ٧٧ للميلاد فصل VXX, 88) بأن تدمر تتمتع بمركز خاص بها بين الامبراطوريتين العظيمتين الرومانية والفارثية وكل منهما يتودد اليها كلما برزت خلافاتهما.

وقد قيل عن هذه الشهادة أنها خارجة عن زمانها، بما أن تدمر كانت قد فقدت استقلالها في مطلع القرن الأول للميلاد ومع ذلك وكما فسره تيخدور (J. Teixidor (١٩٨٤ : ١٣-١٤)، رغم خضوعها لروما فإن هذه المدينة التجارية استطاعت الاحتفاظ بحريتها بمواجهة هاتين القوتين اللتين كانتا تتقاسمان العالم الشرقي في ذلك العهد واحتفظت باستغلالية العمل فيما يخص بعلاقاتها التجارية وذلك من أجل مصلحة روما نفسها. وبفضل هذه اللعبة الدبلوماسية الماهرة استطاع أصحاب القوافل التدمرية السيطرة على الطرق التجارية الرئيسية. فالطريق الشمالية الذي كان يربط تدمر بسوريا (Soura) على نهر الفرات مروراً بأرك والسخنة والرصافة كانت مطروقة منذ الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل. (انظر ورقة كلينجل Klengel في هذا المجلد.). الا أن الرُقم التي وجدت في مسكنة – Emar ايمار، لا تشير الى وجود نشاط تجاري في ذلك العصر (ارنو ١٩٧٥) على أية حال فإن مثل هذا النشاط كان غير معقول في هذه الفترة لأن استخدام الجمل لم يكن شائعاً في ذلك العصر لنقل البضائع.

ومن ناحية أخرى فإن الطريق التي كانت تصل تدمر بالهند والصين عن طريق افغانستان لم تكن آمنة بسبب القبائل البدوية التي لم تكن الممالك في ذلك العهد تستطيع السيطرة عليها. (جافليكوفسكي –Gawlikowski ١٩٨٨ : ١٨٣). وفي وقت لاحق أي في العصر الهلنستي فإن التدمريين كانوا يُعتبرون الوسيط بين الشرق الأقصى والبحر الأبيض المتوسط وهكذا فإن ابيانوس الذي روى غزوة فرسان مارك انطوني على الواحة عرّف التدمريين بأنهم: « تجار يجلبون من بلاد الفرس منتجات الهند والجزيرة العربية ليبيعوها الى الرومان » (الحروب الأهلية ٥، ٩). ويجب أن نضيف الى هذه منتجات الصين. وفي الواقع فإنه في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد عادت العلاقات التجارية بين الصين والامبراطورية الفارثية الى الحياة لتسمح لطريق الحرير بالوصول الى البحر الأبيض المتوسط بواسطة تدمر (انظر ري كوكي –Rey-Goquais ١٩٨٧ : ٢٢٨) غير أن التوتر لسياسي بين الفارثيين والسلوقيين وانحطاط هؤلاء في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد لم يعد يسمح لبضائع الشرق الأوسط بالمرور.

إن انطيوخوس الثالث الكبير قد حاول اعادة النشاط الى الطريق الشمالية بعد انتصاراته في آسيا واقامة علاقات ودية مع امراء وادي كابول في افغانستان. وحاول أيضاً اقامة علاقات تجارية مع الجرهة Gherra

وتيلوس (البحرين) على ضفاف الخليج لكن جهوده اصطدمت بالطموحات الامبريالية للرومان حيث مُنيَ بالهزيمة على يد الفيالق الرومانية في مغنيزيا في سيبيل وجُرِّد من كل انتصاراته وأُرغم عى دفع غرامة حرب مقدارها ألف وخمسمائة مثقال سنوياً (ڤيل Will ١٩٦٧ : ١٨١ وما يتبع) . أما ابنه انطيوخوس الرابع ابيفان فإنه اجتاح ايران ووصل الى الخليج . (بلينيوس التاريخ الطبيعي ٦ : ١٤٧) . على أية حال فإن الأنباط تواجدوا هناك بكثرة (ري كوكيه Rey-Goquais ١٩٨٧ : ٢٢٧) . ولم يحالف جهود انطيوخوس الحظ بتنشيط حركة التجارة من سورية الى الهند بينما كان التدمريون أكثر فعالية من السلوقيين : إذ أنه من مطلع القرن الأول للميلاد أخذ رجال القوافل التدمرية في الواحة ينظِّمون طريق الفرات التي كانت تمر بدورا اوروبوس (الصالحية) ثم تنزل بمحاذاة الفرات عن طريق عانه ثم فولوجزياد (اولوشيا) لتصل الى كراكس (لمحمَّرة) في مملكة ميسان بالقرب من البصرة على شط العرب . وإن أقدم كتابة للقوافل من ١٩ قبل الميلاد هي نص تذكاري نقشه التدمريون والاغريقيون في سلوقيه على نهر دجلة ليكرموا تاجراً غنياً هو « يدع إل » بن عزيزو من بني متيبول .

وكما ذكرت سالفاً فإن الرومان سمحوا للتدمريين بإقامة علاقات طيبة مع الفرثيين وذلك لمصلحتهم . وهكذا فإنه خلال مهمته في الشرق في ١١٧ و١١٨ للميلاد فإن المبعوث الروماني جيرمانيكوس أوفد الى ملك كراكس الكسندر التدمري (ستاركي – Starcky – جافليكوفسكي Gawlikowski – ١٩٨٥ : ٣٧) وإن جرمانيكوس هذا ذهب الى الحارث الرابع ملك البتراء (سيريغ *Ant. Syr I, 46 et 52 Seyrig*) واثبتت هذه المهمة بتأكيد أن العلاقات كانت قائمة بين عاصمة الأنباط وتدمر منذ القرن الأول للميلاد وتطورت هذه العلاقات في القرنين الثاني والثالث بسبب المصالح الاقتصادية التي نشّطها الانباط في منطقة البحر الأحمر (انظر كاسون ١٩٨٩ – Casson – ١٩٨٩ وري – كوكيه ١٩٨٧ : ٢٢٨) . وقد ذكر سترابون نشاط الأنباط الذي امتد من خليج ايلة (العقبة) حتى الجرهة على الطرف الآخر للبحر الأحمر في القرن الأول قبل الميلاد (جغرافيا ١٦ ، ٤) . والبحر الأحمر يمتد من خليج العقبة حتى الخليج العربي . أما التدمريون فقد اضطروا الى إقامة محطات تجارية لهم على الخليج العربي ، فإذا كان ملك ميسان قد عيَّن في عام ١٣١ للميلاد يرحاي بن نبوزبد كحاكم لجزيرة البحرين فهذا يعني أن تجار تدمر كانوا قد استقروا على ضفاف الخليج منذ وقت طويل (سيريغ ١٩٤١ : ٢٥٢) . أما طريق الحرير التي أغلقها الفرثيون فإن تجار تدمر قد استعاضوا عنها بطريق بحرية ، فإنه من المحتمل أن التدمريين كانوا ينزلون الفرات على قوارب من القرب (جافليكوفسي ١٩٨٨ : ١٦٨) وذلك لينطلقوا من موانئ الخليج العربي في رحلات بحرية جريئة . وهكذا فإن ماركوس البيوس يرحاي قد أقيم له اثنا عشر تمثالاً . وان أحد النقوش في السوق التجارية تؤكد بأنه ساعد التجار الذين ذهبوا الى سكيثيا مرفؤها الرئيسي برباريكوم يقع على مصب نهر الهندوس . وإن هؤلاء التجار قد استقلوا مركب حُنين بن حدودان (شكل ٥) (سيريغ ، ١٩٤١ : ٢٥٩–٢٦٣) وكان هذا البحار الجريء يعود محملاً بالبضائع الثمينة التي كان من بينها الأقمشة القطنية والحجارة الكريمة مثل اللازورد والفيروز ولكن بالأخص حرير الصين . وإن الرومان الذين عرفوا هذا النسيج الثمين في القرن الأول قبل الميلاد في معركة كار Carrhes أصبحوا من المولعين به . وأن اكتشاف أقمشة حريرية في مقابر تدمر ليبيِّن أن الواحة قد أصبحت مركزاً هاماً لاستيراد مثل هذا النسيج (انظر ڤيل Will وستاوفر Stauffer ١٩٩٢ في هذا المجلد) وكانت البتراء كذلك محطة توقف هامة بطريق الحرير بما أنها مذكورة في حوليات ملوك اسرة « هان » Hans الصينية المتأخرين تحت اسم لُي-كان وهو تحريف لاسمها القديم « رقيم » لأن حرف الراء غير موجود في اللغة الصينية فيستعاض عنها باللام (انظر ميلر Miller ١٩٦٩ : ١٣٤ وجراف Graf في هذا المجلد) ، وكان بالإمكان أن يصل الحرير بواسطة المراكب التدمرية أو الاسكندرانية الى الخليج ثم يُنقل على ظهور الجمال حتى البتراء أو يستطيع بواسطة الطريق البحرية الوصول الى لوكي كومي – الحوراء وهو المرفأ الرئيسي للأنباط على البحر الأحمر . أما التدمريون فكانوا من جانبهم يرسلون بضائعهم الى موانئ فنيقيا على البحر الابيض المتوسط عن طريق

حمص أو دمشق - بانياس ولم تذكر الكتابات شيئاً عن هذه الطريق لأنها ربما كانت تحت سيطرة أجنبية مثل الرومان أو الفينيقين وعلى أية حال فإنه مؤشر ذو مغزى أن يضع بلينيوس البتراء على ملتقى طريقين «الأولى متجهة من سورية الى تدمر الأخرى قادمة من غزة». كان لا بد للأولى أن تتبع طريق الملوك والتي عرفت فيما بعد باسم طريق تراجان الجديدة. أما الثانية فكانت تنزل من البتراء باتجاه غرندل ثم وادي العربة لتتصل بطريق غزة بواسطة كنتلة عجرود في سيناء (شكل ٢) (انظر نقب ١٩٦٦: ٨٩-٩٨). ودون أن نبالغ بأهمية هذه المعلومات فإنه بالامكان أن نستنتج وجود طريق مواصلات مباشرة بين البتراء وتدمر من ناحية ثم منها الى سيناء وغزة. وسنرى فيما بعد أهمية هذه المعطيات بالنسبة لاجتياح التدمريين لمصر. غير أنه بالامكان أن نستنتج حالاً وجود طريق جنوبية تصل بين الجزيرة العربية وتدمر.

الطريق الجنوبية والعلاقات بين الأنباط والتدمريين (شكل ١):

إن المصادر والكتابات تكاد تكون معدومة على العلاقات التجارية بين الأنباط وأهل تدمر. ولكن يمكننا أن نقدر بأن هذه العلاقات كانت وديّة وسلمية بين الشعبين اللذين كانا ينتميان الى أصل عربي واحد. فالأنباط الذين وصلوا الى بلاد ادوم في القرن السادس ق.م. تقريباً خزّنوا في صخرتهم البخور والمر اللذين نقلوهما من العربية السعيدة - كما ذكر ديودوروس الصقلي (*Bib. His.* XIX, 95). وفي القرن الأول ق.م. انتزعوا هذه التجارة المُجدية من المعينيين وأخذوا يزودون الغرب بهذه الكماليات الفاخرة عبر موانئ رينوكولورا - العريش وغزة. كما وأنهم على أثر تحويل التجارة نحو الاسكندرية في عهد اغسطس قيصر (سترابو جغرافية ١٦، ٤، ٢٤) أخذوا يحولون انظارهم نحو طريق الشمال، تلك الطريق التي كانت تتجه الى دمشق ثم الى تدمر. ولم يكن عبثاً أن بلينيوس جعل البتراء على التقاء الطريقين الذين تم ذكرهما آنفاً.

واذا كان رابل الثاني (٧٠-١٠٦ ب.م) قد اختار بصرى عاصمة ثانية، فلم يكن ذلك بالتأكيد بسبب سهول حوران الغنية فقط، وانما بسبب تحول طرق التجارة نحو الشمال، فإن وجود الأنباط في سيع على طريق قنوات كان أكيداً (انظر دنزر وآخرون ١٩٨٥: ٦٩) وذلك بسبب وجود معبد نبطي الأصل، يرجع الى عهد رابل الثاني. كما وأن وجودهم كان مؤكداً في الضمير على بعد أربعين كيلومتراً الى الشمال من دمشق على طريق تدمر. وذلك باكتشاف نقش في معبد زيوس اله السماء. (انظر كليرمون غانو Clermont Ganneau- ١٨٨٨: ٤٧ وما يتبع).

«هذا هو المذبح الذي نصبه هانئ. مُعتق جديلة ابنة بجرة أم ادرمو الحاكم ونجيدو أبناء عبد منكو بالتبني، الحاكم - في شهر أيار سنة ٤٠٥ حسب تقويم الرومان وهي السنة الرابعة والعشرين لرابل الملك».

إن تاريخ هذه الكتابة هو ٩٤ ب.م في حكم الامبراطور دومسيانوس ويؤكد أن السنة الأولى لرابل هي في ٧٠ ب.م. أن زيوس اله السماء هو بعل شمين السوري وربما كان يقابل الاله ذو الشرى عند الأنباط (زيادين ١٩٨٥أ: ٢٤٥).

أما الحاكمان ادرمو وعبد منكو فلا نعرف عنهما شيئاً ومن الصعب معرفة وظيفتهما. فالأسماء في هذه الكتابة هي نبطية (مثل هانئ وعبد منكو الخ..).

ومن الممكن وجود جالية نبطية في ضمير نفسها على طريق تجارية من دمشق الى تدمر والتي كانت نشطة في القرن الأول للميلاد.

في نفس هذه الفترة دشن وهب الله من السويداء في جبل العرب معبداً في البتراء «للاله صعب الذي يسكن في أصل الخبثا» (انظر ميليك، ١٩٧٠: ١٥٨ و١٩٨٢: ٢٦٤). لم يتم اكتشاف هذا المعبد بعد، غير أن جبل الخبثا الذي يرتفع الى الشرق من جبال البتراء يشتمل على أعظم الواجهات الصخرية والتي يقع عند نهايتها مدفن سكتيوس فلورنتينوس، الحاكم الروماني للمدينة. وكما يعتقد ميليك فإن الاله صعب هو الاله القبلي للانباط، قبل هجرتهم الى بلاد آدوم (١٩٨٢: ٢٦٤).

وهناك نقش تدمري يشير الى هذا الاله على أنه « الاله صعب الذي يُدعى جَد الأنباط » أي رائد حظهم (ميليك ١٩٨٢ : ١٦٣-٦٤) . إن هذا النقش التذكاري الى الاله « الجد » للأنباط لهو شاهد جيد على طيب العلاقات التي كانت سائدة بين الشعبين. وإن ضم تراجان لمملكة الأنباط عاد بالفائدة على تجار تدمر إذ فتح لهم أسواق الجزيرة العربية ومصر على البحر الأحمر. وإن طريق تراجان الجديدة التي رُصفت ما بين ١١١-١١٤م من البحر الأحمر وحتى بصرى، إنما نشّطت التبادل التجاري بين سوريا والجزيرة العربية. إذ أننا نعلم أن الرومان قد احتلوا المحطات التجارية النبطية من الحجر / مدائن صالح وحتى دومة / الجوف. في وادي السرحان (Bowersock بورسوك ١٩٨٤ : ١٣٣-١٣٦).

وبالاستفادة من هذا التغلغل الروماني في الجزيرة العربية فإن العلاقات التجارية بين مملكة الأنباط السابقة والولاية السورية قد تطورت.

ففي عام ١٣٢م أهدى في تدمر « عبيدو بن غنمو بن سعد اللات النبطي في حيرة ومعسكر عانه مذبحين الى الاله شيع القوم الذي لا يشرب الخمر، من أجل سلامته وسلامة مُعيتي وعبدو اخوانه وسعد اللات ابنه. في شهر ايلول عام ٤٤٣ . ولذكرى زبيدا بن شمعون بن بلعقب مضيفه وصديقه وذلك أمام شيع القوم الاله الطيب. وليُذكر كذلك كل من يزور هذه المذابح ويقول: الذكرى الطيبة لأسماء كل هؤلاء ». (مدونة النقوش السامية رقم ٢٨٥ ، *RES*).

كان عبيدو فارساً في الخدمة على ضفاف نهر الفرات في معسكر عانة بين دورا اوروبوس وهيت ولقد ظن البعض أنه كان يأتمر بأمر الفرثيين ولكن ستاركي (١٩٨٥ : ٨٦) يعتقد أن الضفة الشرقية لنهر الفرات الى الأسفل من دورا اوروبوس أصبحت تحت سلطة تدمر الادارية بموجب اتفاق كان الامبراطور هدريان قد أبرمه مع الفرثيين. .نحن نعلم على أي حال أن رماة تدمريين كانوا يقومون بدوريات في الأراضي الفرثية لحماية القوافل. ومن المعروف أن شيع القوم الذي أهداه عبيدو المذبحين كان الاله الحامي للقوافل وأن تحريم احتساء الخمرة كان مفروضاً على الرماة دون شك (حتى لا يخطئوا هدفهم).

وكما يذكر النقش فإن عبيدو كان ينزل على الرحب والسعة في تدمر بما أنه كان في ضيافة صديقه زبيدا. وبدورهم فإن التدمريين طرقوا دروب الجزيرة العربية. ومن الغريب أن المر والبخور وهما المادتان المرغوبتان كثيراً في الشرق وفي الغرب غير مذكورتين في تعرفة تدمر. « وان الزيت وحده والمنقول في أواني الالبستر » كان يخضع للضريبة (تكسيدور ١٩٨٤ : ٨٦). هذا رغم أن التدمريين ساروا على طريق بلاد العطور، أي حضرموت وعاصمتها شبوة والتي كانت نقطة انطلاق القوافل المحملة بهذه المنتجات الثمينة. فقد وجدت نقوش بالعربية الجنوبية على صخرة يعتمرها بناء مربع ضلعه ٦,٧٠م ويبعد عشرين كيلومتراً الى الجنوب من شبوة. ويعرف « بالعُقلة ». وكانت بعثة فرنسية قد نقبت داخل البناء عام ١٩٧٦ ووجدت « حجرة مطلية بملاط جميل » (بيرين جاكلين .Pirenne J ١٩٩٠ : ٩٨). وفيها مصطبة ملاصقة للجدار الشرقي. وإن أحد النقوش (مدونة النقوش السامية *RES* ٤٩١)، يذكر العاد يلوط الذي جاء الى هذا المكان « انوادوم » من أجل « توزيع الألقاب » الرسمية، الا أن جاكلين بيرن تظن أن النقش « يعود الى طقس للسحر ولطلب الاستسقاء » ولكن دون أدلة مقنعة، وعلى أي حال فإن النقش رقم ٤٨٥٩ يبين أن أجانب كانوا يحضرون هذا الاحتفال ومنهم كلدانيان اثنان، وهنديان وتدمريان هما حيري وعيدودوم.

وإن الملك العاد يلوط قد تم تحديد ملكه بين ١٢٠-٢٢٠ق.م. (انظر غراف ١٩٨٩ : ١٤٧). وفي وادي السرحان، وهو معبر مهم بين الخليج العربي - الفارسي وسورية بواسطة واحة الأزرق ومملكة الأنباط عن طريق تيماء، باير والجفر، وُجد نقش تدمري في القرقر الى الشمال من دومة / الجوف وقام بقراءته ستاركي (١٩٧٠ : ١٦١-١٦٢):

« في شهر سيوان سنة ٨٥(٤) ليذكر بجشو بن قملا بن سعد بالخير. نقشه ابنه » أن المرحوم الأب. ستاركي يفضل تاريخ هذا النقش عام ١٧٤م ولكنه لا يستبعد عام ٢٧٤م. ومن الصعب أن نعرف اذا كان هذا النقش الجنائزي يخص أحد رجال القوافل أم

مستوطناً يقطن وادي السرحان. وهذه الفرضية هي الأكثر احتمالاً لأن النقش نحته ابنه. إذ أنه كان بإمكان أحد تجار تدمر أن يستقر على احدى طرق الجزيرة العربية الهامة.

تغلغل التدمريين في الجزيرة العربية ومصر في القرن الثالث للميلاد:

في عام ٢٦٨-٢٦٩ عند وفاة الامبراطور كلود الغوطي غزا جيش زنوبيا بقيادة سبتيميوس زبدا قائدها بلاد مصر للمرة الأولى على رأس جيش بلغ سبعين ألف مقاتل على ذمة زوسيموس المؤرخ البيزنطي (١: ١٤٤). ولكن هذا الرقم على ما يبدو مبالغ فيه (راجع شوارتس Schwartz ١٩٥٣: ٦٨). وعمل تناجينو بروبوس Probus حاكم مصر على دحر الجيش التدمري. الا أن تيماجين Timagene زعيم الحزب الزنوبي هاجمه بحيلة من أعلى قلعة بابل (أي جبل المقطم حيث توجد قلعة صلاح الدين الحالية) (انظر فولكوف Volkoff ١٩٧١: ٤-٥) ولما وقع بروبوس في الأسر أقدم على الانتحار. فاحتل الجيش التدمري مصر للمرة الثانية وظل فيها من ١٤ آذار ٢٧٠م حتى ١٣ نيسان ٢٧١م (شوارتز ١٩٥٣: ٧٤ -Schwartz).

ورغم قصر هذا الاحتلال فإن زنوبيا ووهب اللات قد ضربا العملة في مصر. وبذلت ملكة تدمر الجهد لاسترضاء المصريين عندما ادعت أنها من سلالة البطالسة متحدرة من كيلوبترا ثم انها تقربت الى الشعب من أصل سامي (اليهود) في مصر. الا أن الامبراطور اورليانوس هاجم تدمر عن طريق انطاكية فهرع القائد زبدا لنجدة وطنه.

إن نهاية طموحات زنوبيا بمواجهة قوة روما كانت كارثة وإن النقش الاغريقي على شاهد جنائزي والذي نشره سيريغ هو تعبير مؤلم عن حداد قومي عانت منه سورية وذلك في عقب الحملة التدمرية (سيريغ ١٩٥٨: ١٢-١٢٣ :٧): «مصر القبيحة قبضت العديد من الارواح في نفس الوقت الذي أودت بحياتك. ولكن خالك وأمك الكريمة استطاعا أن يقيمولك الطقوس الجنائزية التي تستحقها. غير أن أحداً لم يعتن بالآخرين فجعلتهم الطيور الجارحة طعاما لها. تشجع». كما بين ناشر هذا النقش الجنائزي فإن هذه الشكوى الحزينة «تتألم على مصاب جماعي هلك بسببه عدد كبير من الرجال في مصر» (سيريغ نفس المرجع: ١٢١ وما يتبع). وإن الظرف الأكثر ملائمة هو اجتياح الجيوش التدمرية لمصر من ٢٦٨ الى ٢٧١م. وإن سؤالين يتبادران الى الذهن:

١- ما هي الطريق التي سلكها الجيش للوصول الى مصر؟

٢- ما هي أسباب هذه المغامرة المأسوية لتدمر؟

إن بعض الباحثين يجعلون الطريق التي سلكها الجيش الغازي تمر بدمشق ثم تنزل من معبر بانياس الى صور لركوب البحر. إن جزءاً من جيش زنوبيا ربما سلك هذه الطريق ليصل الى الاسكندرية. ولكن كما أشرنا سالفاً فإن المعركة المصيرية قد تمت قرب القاهرة، ثم إن نقشاً اخر وُجد في بصرى الشام يدل على أن جيش تدمر قد قضى على معسكر ومعبد الفيلق الروماني في تلك المدينة (سيريغ ١٩٤١: ٤٦-٤٨).

وإن أفضل الطرق من عاصمة الولاية العربية الى مصر هو السير على طريق تراجان الجديدة حتى البحر الأحمر ثم ركوب السفن على البحر الأحمر في ايلة - العقبة الا أن صعوبات اجتياز البحر معروفة منذ حملة اليوس جالوس على الجزيرة العربية في ٢٥ ق.م. (سترابو، جغرافية ١٦، ٤، ٢٣) إذ أن القائد الروماني خسر العديد من مراكبه ورجاله. وإن الطريق الأكثر أمناً بالنسبة لجيش محارب إنما هي أن يتبع درب القوافل في سيناء، مروراً بالبتراء. وإن جيش السلطان بيبرس قطع الصحراء في خمسة أيام من القاهرة الى البتراء عام ١٢٧٦، (انظر زيادين ١٩٨٥ ب: ١٥٩- ١٧٤ وشكل رقم ٢). وإن هذه الطريق لتفسر بشكل أفضل النقش الجنائزي الذي ذكرناه اذا كان العديد من الجنود السوريين هلكو في الصحراء أثناء انسحابهم.

إن حفريات معبد قصر البنت في البتراء (شكل ٦) قد بينت أن هذا المعبد الرئيسي قد دُمّر عن قصد في العصر الروماني المتاخر. إن قطعة نقد من جاليانوس

(٢٥٢–٢٦٨) قد وجدت بداخل هذا المعبد، بين كسر الأسود الرخامية والكتابات الرومانية التي حطمت (شكل ٧). كما وجدت قطعة أخرى من عهد مكسميان هرقل (٢٩٥–٢٩٦) في الساحة الخارجية للمعبد تحت طبقة من الأنقاض (زيادين ١٩٨٦ : ٢٤٤). لا يوجد أي اثبات بأن جيش زنوبيا دمر معبد قصر البنت في البتراء وليس هناك أي سبب ليفعل ذلك. ولكن يمكن أن نتصور بأن الاضطرابات قد نشأت في البتراء بمناسبة ثورة تدمر على الرومان وأن السكان قاموا بتدمير المعبد الرئيسي الذي أصبح مركز عبادة الامبراطور الروماني بعد الاستيلاء على مملكة الأنباط.

أما الاجابة على السؤال الثاني حول أسباب ثورة تدمر فهي أكثر صعوبة. ولكن ضعف الامبراطورية الرومانية والانتصار الذي حققه الفرس على الامبراطور فالريان في عام ٢٦٠م تم انتصار أُذينة أمير تدمر على شابور الأول وحصوله على لقب « ملك الملوك » « وقائد الرومان » ثم « مقوم الشرق كله » إنما أثارت الطموحات العادلة لتدمر. ولكن الى جانب التوسع في الممتلكات فإن المصالح الاقتصادية هي التي دفعت زنوبيا الى مغامرتها العدائية. فمنذ عهد اغسطس قيصر كان بحارة الاسكندرية الذين عرفوا الاستفادة من الرياح الموسمية في الصيف يجهزون ما لا يقل عن مئة وعشرين سفينة في البحر الأحمر للوصول الى الموانئ الهندية (انظر سترابو، جغرافية ٢، ٥، ١٢) وكانوا بذلك ينافسون البحارة التدمريين الجريئين الذين كانوا يبتغون توابل الهند وحرير الصين في موانئ سكيثيا. وفي القرن الثاني ق.م كان الأنباط يهاجمون السفن المصرية في البحر الأحمر للأسباب ذاتها (سترابو، جغرافية ١٦، ٤، ٨) وفي عهد الامبراطور كراكلا كانت مجموعة الرماة التدمريين مستقرة في قُفط على نهر النيل وهذا المرفأ كان ينقل الى الاسكندرية بضائع الهند والصين والجزيرة العربية. وكان لوجودهم علاقة بمصالح تجارية كانوا يقومون على حمايتها (برناند Bernand– ١٩٨٤ : ٢٣٨). فلا يوجد شك في هذه الحال أن التدمريين قاموا بالاستيلاء على الاسكندرية وهو أضخم المرافئ في الشرق لكي يحوّلوا تجارة هذا المرفأ المجزية لصالحهم.

ولم يكن في وسع الأنباط الا أن يشجعوا زوال القوة البحرية الاسكندرانية وأن اجتياح مصر بنجاح لم يكن ليتم الا بالتواطئ معهم. كما وأن رمز التبادل والتعاون بين تدمر والبتراء كان وجود المفكر كالينيكوس Calinicus النبطي الأصل في بلاط زنوبيا وهو الذي ألّف تاريخ الاسكندرية في عشرة مجلدات وأهداه الى كيلوبترا/زنوبيا (انظر جراف Graf ١٩٨٨ : ١٤٦).

وفي الخلاصة فإنا نستنتج من هذا البحث بأن تعاوناً بين الأنباط والتدمريين يحتمل أن يكون قائماً رغم صمت المصادر التاريخية. وفي عهد ازدهار مملكة الأنباط في القرن الأول للميلاد فإن تجار الشعبين لا بد وأنهم التقوا في الجرها أو في تيلوس (البحرين) على الخليج وفي قنا مرفأ اليمن الجنوبي أو في قفط على نهر النيل. وليس هناك أي أثر للتنافس بين هذين الشعبين. فإذا كانت البتراء احدى محطات طريق الحرير باسم ليكيان فإن هذا النسيج الثمين لم يكن بإمكانه الوصول الى العاصمة النبطية بدون وساطة التدمريين الذين كانوا مستقرين في كراكس (المحمّرة) أو يمخرون عباب البحر الأحمر. ومن ناحية أخرى فإن اجتياح زنوبيا للولاية العربية لم يكن ليتحقق بنجاح بدون مساعدة الأنباط. إن هذه الانتفاضة العربية لم يكن من الممكن - كما نعتقد - الا أن تحرك المشاعر القومية لسكان البتراء.

* راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي.